Todorov and the discourse of violence and inequality in Western thought

Dr. Boshra Abbas [*]
Muhammad Abbas Murad**

(Received 2 / 7 / 2020. Accepted 14 / 9 / 2020)

□ ABSTRACT □

The West's denial of the principle of equality of civilizations, and its practice of violence against the other, believing in the right of guardianship and the imposition of control, was the motive for the exhumation of western heritage by Tzvetan Todorov (1939 -2017) aimed at developing a new approach to the issues of modern man, equality and equal opportunities among peoples in the contribution of civilization, stressing that the concept of a clash of civilizations is only a model that justifies interference in the affairs of other countries, and that the denial of equality leads to the rationalization of terror in the West in addition to the obsession of power that does not leave the West behind the west. Todorov refuses to justify the guardianship of one civilization over another under any pretext, as well as calling for the spread of a culture of tolerance, dialogue and recognition of the other.

Keywords: truism, civilization, inequality, barbarism.

[*]**Ph.D. in Philosophy - Faculty member in the Department of Philosophy - Faculty of Arts and Humanities - Damascus University.**
****Master's Student - Department of Philosophy - Faculty of Arts and Humanities - Damascus University.**

تودوروف وخطاب العنف واللامساواة في الفكر الغربي

د. بشرى عباس [*]

محمد عباس مراد [**]

(تاريخ الإيداع 2 / 7 / 2020. قبل للنشر في 14 / 9 / 2020)

□ ملخّص □

تَنَكُّر الغرب لمبدأ المساواة بين الحضارات، وممارسته أشكال العنف بحق الآخر، كان الدافع لنبش التراث الغربي من قبل تزفيتان تودوروف (1939 _2017 م). يرمي منها بلورة مقاربة جديدة لقضايا الإنسان المعاصر، من مساواة وتكافؤ الفرص بين الشعوب في المساهمة الحضارية. مؤكداً أنّ مفهوم صراع الحضارات ليس إلا نموذجاً لتبرير التدخل في شؤون الآخرين، كما أنّ تَنَكُّر المساواة يفضي إلى عقلنة الرعب لدى الغرب، إضافة لهوس القوة الذي لا يفارق الإنسان الغربي إثر التقدم التكنولوجي، ومنه يرفض تودوروف أي تبرير لوصاية حضارة على أخرى. كما يدعو إلى نشر ثقافة الحوار والاعتراف بالآخر.

الكلمات المفتاحية: الغيرية – الحضارة – اللامساواة – البربرية.

[*] **دكتوراه في الفلسفة – عضو هيئة تدريسية في قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة دمشق– سورية.**

[**] **طالب ماجستير – قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق–سورية.**

مقدمة:

شغلت قضية تنوع الحضارات في راهننا كتابات الفلاسفة والمفكرين. وكان لتزفيتان تودوروف (1939–2017م) الفيلسوف الفرنسي الجنسية والبلغاري الأصل، والذي تجول في رحاب النقد الأدبي والنظرية الأدبية، بصمته في الأنثروبولوجيا والسياسة والفكر، وترك حضوراً في الحديث عن الحضارات وتكافؤ الفرص بين الشعوب. والتأكيد على المساواة بين الحضارات مؤكداً أنّ الغرب يعاني خوفاً مرضياً من الآخر، وهذا ما يدفعه لوضع الآخر في خانة البرابرة رافضاً–تودوروف– خطاب الكراهية والعنصرية وازدراء الآخر. كما يؤكد على قاعدة التنوع الحضاري، واختلاف القيم. مؤكداً "أنّ سجادا تقليديا قد يكون أروع من لوحة تجريدية"، حيث يدعو إلى تجاوز مقولة "صراع الحضارات" التي طافت على سطح مصطلحات السياسة الغربية، لينتقل الإنسان إلى بناء نموذج إنساني يؤمن بالتعدد والاختلاف. مؤمناً بثقافة التسامح والحوار داعياً المنظمات الدولية إلى تحمل مسؤولياتها الإنسانية والأخلاقية تجاه قضايا الصراع بين بني البشر. والتي يحيلها إلى أسباب سياسية تتعلق بالهيمنة ونفي الآخر. مؤكداً في كتابه "روح الانوار" "أنّ كل سكان المعمورة كائنات إنسانية ما يجمع الناس أكثر أهمية مما يفرقهم، مستلهما قول مونتسكيو: أنا إنسان ولست فرنسياً سوى بالصدفة.

أهمية البحث وأهدافه :

تأتي أهمية البحث للوقوف على قراءة تودوروف في العلاقة التي تربط الحضارات ببعضها، واستخدام الغرب للعنف والأساليب الدعائية للوصول إلى الغاية. كما يتجلى أهمية البحث على مدى أحقية الآخر بالتمسك بمعتقداته ورفضه الوصاية من الخارج، إضافة لأهمية الحوار الذي يفضي إلى السلام والتسامح.

أهداف البحث:

يهدف بحثنا هذا للوقوف على أهمية الحوار بين الحضارات، كونها إرثاً إنسانياً مشتركاً بديلاً عن مفهوم "صراع الحضارات" والاعتراف بالحضارات كإرث للإنسانية، وبيان هوس القوة لدى الغرب وانعكاسات الخوف من الآخر وتداعيات ذلك على الشرق والغرب، إضافة لبيان الأسباب الحقيقية والذرائع الوهمية فيما يتعلق بالحروب الغربية مع الآخر، ومكانة مجلس الأمن كضامن للسلام العالمي.

الدراسات السابقة:

وقف الكثير من الباحثين والمفكرين على مسألة العنف الذي مارسه الغرب تجاه الشعوب الأخرى. لكن ما يتعلق بكتابات تودوروف فلم نتمكن سوى الحصول على مقالات منشورة، لهذا نأمل أن نكون قد وفقنا في توضيح نظرة تودوروف فيما يخص بتعريفه لممارسات الغرب تجاه الشعوب الأخرى.

منهج البحث:

نعتمد في بحثنا هذا على المنهج التحليلي والمقارن إضافة الى التاريخي. نفكك النصوص، نحللها ونقارنها، نستخدم أيا منها في سياق بحثنا عند اقتضاء الضرورة.

المساواة بين الحضارات:

دخلت فكرة الحضارة؛ كما فكرة الثقافات إلى الفكر الأوروبي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، المعروف بعصر "الأنوار" في كتاب "صديق الرجال أو مبحث في السكان" لماركيز دوميرابو وفيها تأخذ "الحضارة" بمعنى التمدن، كما أن فكرة "الثقافات" كان بارزاً في فرنسا في كتابات مونتاني واصراره على قوة العادة [1].

استخدم تودوروف كلمة "حضارة" المتمثل بالمفرد ليُزيل في كتاباته الخلط بين المفاهيم، وحتى يتفادى التأويلات، كما حدث مع مفهوم "البربرية"، بين المعنيين النسبي والمطلق، في إطار علاقة "نحن" بـ "الآخر" تاريخياً. ويستخدم "الثقافات" بصيغة الجمع ليدلل بها عن الجمع لكلمة الحضارة[2]. كما اعتمد في تعريفه للثقافة على علماء "الأثنولوجيا، Ethnology". ويذهب إلى أنها "**الاسم الذي يطلق على مجموع خصائص الحياة الاجتماعية، على طرق العيش والتفكير الجماعيين، على أشكال وأساليب تنظيم الوقت والفضاء، الشيء الذي يتضمن اللغة، الدين، البنى الأسرية، طرق بناء المنازل، الأدوات، طرق تناول الطعام أو ارتداد الملابس**"[3].

في مؤلفه "الخوف من البرابرة: ما وراء صدام الحضارات" لا ينف تودوروف وجود البربرية _والتي يراها نقيضا للحضارة_ كما فعلها شتراوس الذي قال بأن "**البربري هو قبل كل شيء، الإنسان الذي يعتقد بوجود البربرية**"[4]. لكنه (تودوروف) اعتبر أن البربرية هي نفي لإنسانية الآخر، في الوقت الذي يرى في الحضارة اعترافاً بتعدد الثقافات، ويعتبر الحضارة على أنها مشترك إنساني. لذلك يمكننا اختصار التحضر عند تودوروف على أنه مرتبط بالاعتراف بالتعددية والثقافات، ومنه كان الانغلاق على الذات إحدى مؤشرات البربرية.

رفض تودوروف فكرة الثنائيات(المانوية)، حضارة_ بربرية، أنوار_ ظلمات، التسامح الرحب_ العنف الاعمى...الخ. وقد اعتبر الحديث عنها لا تتجاوز كونها غطرسة القائلين بها، أكثر مما تفسر لنا تعقيدات العالم الحالي. [5] لأن العلاقة بين "نحن" و"الآخر" من منطق البربرية والحضارة، واعتماداً على الأحكام الشمولية، أوقع الغرب في براثن البربرية.

ففي الاحتلال الأوروبي لأفريقيا، والذي بدأ مع الكشوف الجغرافية أواخر القرن الخامس عشر، والبحث عن الذهب والتجارة، وكذلك نشر الدين المسيحي، ازداد النفوذ والسيطرة السياسية والاقتصادية، وتلاها القمع الوحشي من قبل الطامعين وجعلوا من الإنسان الأفريقي سلعة تباع وتشترى تحت ستار ادخال الحضارة والمدنية. "**وقد كان مبرر المستعمرين، والمبشرين على السواء هو نفسه. الدونية الموروثة لهؤلاء "البدائيين" الذين احتقروا بالضبط، مثلما احتقر اليونان والرومان البربر، فقد كان ينظر إليهم كأطفال جهلاء يلزم تربيتهم بصبر وعناء، وتارة على أنهم**

---

[1] تودوروف، تزفيتان ، الخوف من البرابرة، ت: د. جان ماجد جبور، كلمة: ابوظبي، ط1، 2009، ص34، بتصرف.

[2] المصدر السابق، ص31، بتصرف.

[3] تودوروف، تزفيتان ، تأملات في الحضارة والديمقراطية والغيرية، ت: محمد الجرطي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، 2014، ص74.

[4] شتراوس، كلود ليفني ، العرق والتاريخ، ت: د. سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع: بيروت، ط2، 1988، ص15.

[5] المصدر السابق، ص99.

حيوانات لا نفس لها يلزم ترويضها بالقوة"[1]. هكذا كتب مايكل انجلو في " أعداء الحوار" عن الاستعمار الأوروبي للقارة الافريقية، فقد نظروا إليهم بدونية ويبدو أن هذا العُرف ليس وليد القرون اللاحقة. فقد كان اليونانيون والرومان ينظرون إلى الآخر كحيواناتٍ، ومنه وجب التعامل معهم بالقوة لترويضهم، وليس كشريك في الإنسانية. لكن تودوروف لم يكن ليؤمن بالقوة في التعامل مع الآخر، وخاصة في حل المسائل العالقة بين الدول والمجتمعات. ويعزو ذلك إلى أنه: إذا كان كل شيء مسموحاً في محاربة الخوف من الآخر، فلا شك أن كل يرى لنفسه الحق في الدفاع عن نفسه، فكما الغرب يرى في الآخرين تهديداً، كذلك العكس صحيحاً، لذلك يرى تودوروف بأننا يجب أنْ نقف مع الحق ضد القوة. حتى وإن استدعى ذلك نَقد بلداننا _ويقصد بها البلدان الغربية_ مستذكراً العديد من الأمثلة، والحروب الخارجية (أفغانستان، يوغسلافية، العراق، ...)، التي خاضها الغرب بعد الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفييتي. معتمدةً سياسة القطب الواحد: ومنه بات الوقوف مع الحق، ورفض القوة التي تتخذ من الفضيلة قناعاً تختبئ خلفه، هو واجب الإنسانية.

ويذهب تودوروف إلى أنّ الحديث عن ثقافةٍ واحدةٍ داخل الفرد هي غير دقيقة. حيث يعتبر أنّ الفرد مُكَونٌ من مجموعة ثقافاتٍ، يؤثِرُ ويتأثّر بمن حوله، ويؤكد تودوروف فيما ذهب إليه بقوله: "**ليست الثقافات الحية في تحولٍ دائمٍ فحسب، وإنما يحمل كل فرد في داخله ثقافات متعددة. والواقع أنّ هذا التعايش السلمي والتأثيرات المتبادلة التي يولدها، يمكن أنْ يلاحظ كذلك إذا ما نظرنا إلى الأمور من منظور الثقافات. فلفرط ما تجاوزت هذه الثقافات، أثرتْ ببعضها البعض واستعارت عناصر من بعضها، وأنتجتْ أشكالاً مهجنةً بدتْ بعد بضعة قرون، وكأنها السمات الأكثر أصالة في كل واحدة منها**"[2]. ويعتقد الباحث أنّ المعتقدات أيضاً متنقلةً، ولم ينجو الأفراد والشعوب من تأثيرها: فالمسيحية الغربية هي نتاج الشرق وانتقلت إلى الغرب، وهذا حال البوذية فقد انطلقت من الهند وتجاوزت حدودها إلى اليابان والصين.

بات مفهوم صدام الحضارات أكثر المفاهيم الرائجة بين المفكرين والفلاسفة، والأكثر تداولاً. وبخلاف ما جاء في "صراع الحضارات" للسياسي الأمريكي صامويل هنتغتون، الذي يرى اللقاء بين الحضارات يفضي إلى حروبٍ حتى انتصار إحداها، نجد تودوروف يدعم اللقاء والتلاقي والتمازج بين الحضارات كما لو أنها تزاوج. وبذلك ينتج عنها ثقافة جديدة أكثر انفتاحاً وتطوراً، "**فبدل أنْ تتشبه بشابين ذكرين على استعداد للقيام بأي شيء من أجل الانتصار، يمكن للثقافات أنْ تتصرف كرجل وامرأة يتقاربان و"يختلطان" ويولد من تمازجهما مخلوق يأخذ بعض المواصفات من الطرفين. إنّ الالتقاء الطبيعي بين الثقافات لا يولد صدمة ونزاعاً وحرباً، إنما ...، التفاعل والاقتباس والتشابك**"[3]. هكذا نجد تودوروف في الضفة الأخرى من هنتغتون، ويدعم الحوار الذي ينتج عنه ثقافةٍ جديدةٍ، لكن آخرون ساروا على خطى الأخير، ومنهم الصحفية الإيطالية "أوريانا فالاتشي" في كتابها المعنون بـ "الغضب والكبرياء" والتي نقل عنها تودوروف: "**أن مجرد الكلام على ثقافتين يزعجني. أن مجرد وضعها على نفس المستوى يغيظني**"[4]. يبدو الأمر جلياً هنا أنّ "فالاتشي" لا يمكنها مجرد التفكير في وجود ثقافة منافسة، فقد وصل بها الأمر إلى حد النرجسية:

---

[1] ياكوبوتشي، مايكل انجلو ، أعداء الحوار: أسباب اللاتسامح ومظاهره، ت: د. عبد الفتاح حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة، 2010، ص240.

[2] تودوروف، تزفيتان ، الخوف من البرابرة، مصدر سبق ذكره، ص93.

[3] المصدر السابق، ص93.

[4] نقلا عن: تودوروف، تزفيتان ، الخوف من البرابرة، مصدر سبق ذكره ، ص51.

فلا وجود إلا لثقافة واحدة هي ثقافة الغرب! ويجب تعميمها. هكذا أودت العنصرية بـ "فالاتشي" إلى أنه يجب مَحق الثقافات غير الغربية. لأنها ليست آهلة أن تكون إرثاً للإنسانية.

يسلط تودوروف الضوء على الصراعات الحالية في جُلِ لقاءاته وحواراته. وفي رده على صحفي لقناة أور نيوز يؤكد "**أن الصدام لا يحدث بين الحضارات، بل بين الدول ومجموعات من الدول. أن الصراعات التي تحتدم اليوم ليست صراعات ذات طبيعة دينية مهما جاهد البعض لإيهامنا بذلك، بل أنها صراعات ذات طبيعة سياسية**"[1]. نافيا في الوقت ذاته أي صراع مع الإسلام، مؤكداً أنّ الصراع والمشاكل مع بعض البلدان الإسلامية، وليس مع جميعها مدللاً بذلك على علاقات الولايات المتحدة المختلفة مع كل من الجمهورية الإسلامية والمملكة العربية السعودية. فالبلد الأول يعد عدواً لدوداً للولايات المتحدة الامريكية، أما الثاني فهو بمثابة الصديق الحميم لها [2]. هذه الديماغوجية في التعامل مع الدول الإسلامية، تنم عن مصالح الدول الكبرى، والسياسات والمرونة المتبعة حيال بعض الدول، لهو دليل على ذلك. وليس كما يروج لها أنها "صراع بين الحضارات"، كما يراه تودوروف. ويذهب إلى أنّ الأعمال الإرهابية التي يسعى الغرب إلصاقها بالإسلام ليس صحيحاً، فـ "**الإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيبا للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والتسامح**"[3] هكذا يرى غوستاف لوبون الاسلام في مؤلفه "حضارة العرب". شهادات كثيرة من فلاسفة غربيين ومن عقر دارهم تدحض مزاعم أنّ الإرهاب وليدة الإسلام. فلا يمكننا أنّ ننسبها إلى جهة بعينها دائماً ولا إلى حضارة ما. ويعتبر تودوروف أن الصراعات الحالية ليست إلا صراعات سياسية، واجهتها صراعات أيديولوجية. تسعى الدول الغربية من خلالها فرض سطوتها، واعتماداً على ذلك يرى الباحث "**أن معاملة الآخرين على أنهم لا إنسانيون ووحوش ومتوحشون هي أحد اشكال هذه البربرية**"[4].

يختلف تودوروف مع علماء "الأثنولوجيا، Ethnology" بشأن المساواة بين الثقافات. ذلك لأنّ كل ثقافة لها خصائصها. ويذهب إلى أنّ تقييم الثقافات بالمعايير الكونية هي مدى خدمتها للإنسانية. ولأيمانه العميق أنّ حضارة بعينها لا يمكن أنّ تكون إرثاً للبشرية دون غيرها، بات يدافع عن المساواة بين الحضارات، مقتنعا أن جميعها قدمت للبشرية جزءاً أوصلنا إلى هذا التقدم، كما أنه لا يمكن لحضارة واحدة مهما كانت متقدمة أنْ تحتكر العطاء والتقدم الذي وصلنا إليه، أو تقديم مزاعم الاستغناء عن الثقافات الأخرى. ورغم تأكيد تودوروف أنّ فكرة الاستعمار هي أوروبية، وأن تاريخ الغرب مشبع بالأمثلة في إقصائه للآخرين وعطاءاتهم، لكنه يجد في فكرة المساواة، بأنها وصلت إلينا من التاريخ الأوروبي. وإذا ذهبنا معه أنّ فكرة المساواة هي حقاً نتاج أوروبا الفكري، لكن عندما تتحول المساواة الى تطابق كما حدث في التعامل مع أهل القارة الجديدة فيمكن اعتبارها أنها ميزة الاستعمار، ومآلها فرض نموذجها، وبذلك تُخضِع ثقافة لأخرى. وهذا كان السبب خلف دعوة تودوروف إلى التسامح والحوار. ويرى بأنه نتج عن غيابها الحروب الحالية، فكلما تراجع الحوار بين الحضارات برز الصراع بينها "**ولكن أي جسر يمكن أن نبنيه، وأي حوار ساذج يمكن أنّ نبدأ فيه إذا لم نعترف للطرف الآخر بالمساواة الكاملة، والكرامة الكاملة مثلنا تماما**"؟ [5] هذا هو السؤال الذي يراودنا عند تفكيرنا بدعوة تودوروف للحوار: فالحوار يكون مع ند وشريك وليس مع أدنى أو أعلى.

---

[1] تودوروف، تزفيتان ، تأملات في الحضارة والديمقراطية والغيرية، مصدر سبق ذكره، ص150.

[2] المصدر السابق، ص150، بتصرف.

[3] لوبون، غوستاف ، حضارة العرب، ت: عادل زعيتر، هنداوي، القاهرة،2012، ص132.

[4] تودوروف، تزفيتان، الخوف من البرابرة، مصدر سبق ذكره، ص24.

[5] ياكوبوتشي، مايكل انجلو ، أعداء الحوار: أسباب اللاتسامح ومظاهره، مصدر سبق ذكره، ص67.

يضع تودوروف تاريخ الغرب على المحك. ويذهب لتحليل كليانية "هتلر" وديمقراطية "بيل كلينتون" في مؤلفه "الأمل والذاكرة". ولا يجد أي اختلاف بينها بحكم أنّ كلاهما يسعى إلى الهيمنة. ومنه فالحديث عن المساواة _في عرف تودوروف_ ليس من صميم الدولة الكليانية، لأنها ترى في نفسها الأرقى علماً أو الأنقى عرقاً. مثال ذلك "ألمانيا النازية"، والاتحاد السوفيتي حاملة لواء "الشيوعية"، ويقول في ذلك: "**فالحرية الفردية، والتسامح، والاعداد المشترك ليس لهم أي دور في هذه الدولة بما أننا نمتلك الحقيقة، فهي تتطلب الخضوع والاستسلام لا النقاش**"[1]. ذلك لأنّ العلم هو الأساس عند هذه الدول، وليست الديمقراطية التي تكون على أساس التشاور والاقناع. ويمضي إلى التأكيد أنّ ديمقراطية الغرب باتت مهددةً من داخلها، لسوء استخدام مفهوم الحرية والتدخل في شؤون الدول الأخرى تحت ذرائع مختلفة. لذلك جاءت دعوته للاتحاد الأوروبي إلى التحرر من التبعية والهيمنة الامريكية على قرارها. بتشكيل "قوة ناعمة" الغرض منها حماية نفسها ومصالحها، وليس احتلال أراضٍ أجنبية، كما تفعل الولايات المتحدة الآن. وفي الوقت نفسه إقامة علاقات حسن جوار مع الدول التي تحد أوروبا، وفي ذلك يقول: "**ان إيصال فكرة وجود هوية غريبة إلى المقربين منا، أكانت هوية إفرادية أو جماعية، يعتبر عملاً حضارياً، لأننا نوسع بهذه الطريقة دائرة الإنسانية**"[2]. لكنه يرى أنّ التواصل يجب أنّ يكون بالحوار، وليس بالسيطرة. ومنه جاء جهده ليحذر من الخطاب الزائف للكونية؛ المستقاة من الأنوار. ومن ثم فرض القيم الغربية على الشرق منطلقاً من اعتبار قيمه الأسمى والأرفع، ومن واجبه تحضير الآخر بالقوة العسكرية، والتي يجملها بمسميات التدخل الإنساني لنشر النور ودحر الظلمات.

يتناول تودوروف اختلاط المهاجرين؛ وخاصة منهم المسلمون بسكان أوروبا الأصليين. مقراً بضرورة الاعتراف بكرامة متساوية للجميع. ويرى أنّ الذين يؤكدون على الهوية الوطنية، يعتبرون أنّ كل الوافدين يشكلون خطراً، فيما يؤكد هو "**أن كل مجتمع يعزل نفسه عن بقية العالم سيكون مآله الانحطاط**"[3]. ويرى في "الاكزينوفوبيا" عاملًا مساهماً للتقوقع. مؤكداً أنّ الانغلاق على الذات مآلها التقهقر المعرفي والعلمي. لأن الإنسانية هي حلقة مكملة لبعضها، ويحيل خوف الغرب من الإسلام إلى جذور تاريخية مرتبطة بصراع المسيحية مع الإسلام، والحروب الصليبية، والاستعمار الأوروبي الحديث. داعياً الغرب إلى إغلاق سجونه غير المشروعة، ومراكز التعذيب، لأنها تزكي الكراهية. ويعترض تودوروف على آلية صياغة القوانين في المجتمع الأوروبي. قائلاً: "**أنّ العمل على صياغة قوانين تحترم عادات السكان الأصليين وعادات المهاجرين يتعارض مع مبدأ المساواة، ويضر أكثر بالأقليات التي لا تنجح في تحقيق الاندماج**"[4].

هكذا نرى تودوروف يربط بين تعدد الثقافات، ووحدة الحضارة. فوجود تقدم في الحضارة مرتبط بالاعتراف بممثلي الثقافات الأخرى، وعلى أن إنسانيتهم مشابهة لإنسانيتنا، لكن ثقافتهم مختلفة عن ثقافتنا. لا شعب متحضر بشكل نهائي ولا ثقافة بحد ذاتها بربرية، وهذه خاصية جميع البشر. مؤكداً أن ما يقوم به الغرب ليس إلا عرضاً لقوته، سعياً منه لإذلال الآخر. مستخدماً في ذلك كافة أشكال الدعاية كوسيلة للوصل إلى الغاية والتي يختصرها بمفهوم الهيمنة.

عقلنة الرعب وهوس القوة:

[1] تودوروف، تزفيتان، الامل والذاكرة: خلاصة القرن العشرين، ت: نرمين العمري، عبيكان: الرياض، ط1، 2006، ص44.

[2] تودوروف، تزفيتان، الخوف من البرابرة، مصدر سبق ذكره، ص27.

[3] تودوروف، تزفيتان، تأملات في الحضارة والديمقراطية والغيرية، مصدر سبق ذكره، ص131-132.

[4] المصدر السابق، ص159.

ساد في القرن العشرين صراعاً بين الأنظمة التوتاليتارية والديمقراطيات الليبرالية، بعد هزيمة ألمانيا "النازية". لكن بلداناً أخرى بقيت خارج تلك المواجهة، سميت بالعالم الثالث. فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي لم تعد هناك تلك المواجهة. لكن في المقابل، لم يحدث ما كان مأمولاً ولم يختف التوتر. وخاصة بعد أن طغى على السطح ثورة "التكنولوجيا". وبات القلق يراود الغرب من استخدام الافراد لتكنولوجية مدمرة.

في الوقت الذي يبرر تودوروف خوف الغرب من أية اعتداءات قد تطال قيم الديمقراطية الغربية، ويبرر الوقوف في وجه أي تهديد إرهابي. لكنه يرى أن الخوف المفرط يؤدي إلى نتائج عكسية، وتنشأ عنها أساليب لا إنسانية "**فباسم حماية النساء والأطفال (لدينا)، قتل الكثير من الرجال والنساء والمسنين والأطفال (لدى الآخرين)**"[1]. فكل الوسائل باتت مباحة لدى الغرب للتخلص من هاجس الخوف كما يوضحها تودوروف. فبسبب الخوف من الآخر، مارس الغرب أفظع الجرائم، وأشكال التعذيب، واستخدم في ذلك كافة أشكال الدعاية. وهذا ما يمكن أن نلاحظه وبوضوح عند "هتلر"، الذي أبدى اهتماما بالغاً بمسألة الدعاية، كما ورد في كتابه "كفاحي". ويؤكد أنها أعطت نتائج معكوسة في حربه، لأنها وبعكس المنظمات "الاشتراكية الماركسية"، لم تقم على أساسٍ سليمٍ في بلورتها، أهي وسيلة أم غاية. في الوقت الذي يراها هتلر أنها وسيلةً وضروريةً. لأنها توضح الغاية المنشودة من الحرب، ويثني على حربه المدمرة قائلا: "**الغاية التي من أجلها حملت ألمانيا السلاح أنبل غاية يمكن أن يضعها إنسان نصب عينيه: الدفاع عن حرية شعبنا واستقلاله وتوفير خبزه وضمان مستقبله. أجل حارب شعبنا في سبيل أهداف نبيلة، وقد كان مفروضاً في الدعاية أنْ تذكي روح الكفاح في هذا الشعب وأن تهدف إلى ما تهدف اليه جهود جنودنا في الميدان: احراز النصر**"[2].

"هتلر" لا يختلف عن أعدائه. ففي الحروب الكل يتحدث عن الأهداف النبيلة التي من أجلها يجب أنْ يُمنحَ الثقة. ولإحراز النصر أكد "هتلر" أن الاعتبارات الإنسانية لا بد أنْ توضع جانباً. لكونها ليست من الطبيعة، بل موجودة بوجود الإنسان وتتلاشى بتلاشيه. لذلك آثر إلى وضعها جانباً للحفاظ على الإنسان الألماني، ويستوحي ذلك من قول "هيلموت فون مولتكه" رئيس أركان الجيش الألماني في الحرب العالمية الأولى الذي قال: "**في الحرب تكون أساليب القتال العنيفة أكثر الأساليب إنسانية لأنها تعجل بوضع حد للنزاع. والنضال الذي يهدف إلى حفظ كيان شعب من الشعوب ينتفي معه كل اعتبار جمالي، لأنه ليس في حياة الإنسان أقبح من نير الاستعباد**". [3]

يبدو أن استراتيجية الولايات المتحدة في يومنا هذا، عكس ما ذهب اليه "مولتكه" و" هتلر" ومغايرة لها. فهي تقوم بإطالة أمد حروبها: ونعزو ذلك إلى أنها أسيرة شركات السلاح المؤثرة على قرارات السلم والحرب فيها. والتي تسعى إلى إطالة أمد الأزمات والحروب، لتتمكن من تجريب واستخدام وبيع أسلحتها، حتى وإنْ كانت النتيجة تدميراً لبلدانٍ بأكملها. لكن تودوروف يذهب إلى أنه إذا كانت القوة العسكرية الأمريكية بإمكانها تدمير بلداناً أخرى، لكنها في المقابل تغذي الحقد لدى شعوب تلك البلدان تجاه شعوب الغرب. ويلحقه تفككاً وتشرذماً وحساسية في المجتمع الغربي، بسبب وجود أقليات من شتى بقاع الأرض فيها. إضافة إلى أن الأقليات التي تسكن الدول الغربية باتت تعاني من العنصرية وخاصة المسلمون منهم إثر تنامي "الاكزينوفوبيا" وعلى وجه الخصوص "الإسلاموفوبيا". وتسبَبَ إثارة البعض أن الإسلام يحض على العنف إلى التفاف الأقليات المسلمة في البلدان الغربية حول بعضها، وجعلهم أكثر ارتباطا بتقاليدهم. لكن

---

(1) المصدر السابق، ص12.

(2) هتلر، أدولف، كفاحي، ت: لويس الحاج، بيسان ، بيروت، ط2، 1995، ص97- 98.

(3) نقلا عن، هتلر، أدولف، كفاحي، مصدر سبق ذكره، ص98.

تودوروف يجد "**أن تفسير النزاعات السياسية والاجتماعية من منظور ديني او ثقافي (او عرقي كذلك) هو في الوقت نفسه مغلوط ومضر، ذاك أنه يذكي الصراعات بدل أن يهدأها**"[1]. لهذا فإنه يجد فيما يسميه البعض حربا على "الإرهاب"، هي ليست كذلك؛ ولا تمت إلى التسمية بصلة. مؤكداً أنها حمالة أوجه ولا يعتبر التسمية إلا من وجهة نظر الغرب، في حين ينظر الآخرون إلى الأمر بنفس المعايير الذاتية.

لقد ساد الخلاف بين الدول الأوروبية والولايات المتحدة، كما بين الأوروبيين أنفسهم بشأن الحرب الولايات المتحدة على العراق. فالسؤال عن دوافعها يؤدي بنا إلى الحكم على مشروعيتها من عدمه. ففي خطابه في 17 اذار 2003 إلى الشعب الأمريكي وهو يقرع طبول الحرب عزا الرئيس الأمريكي سبب هذه الحرب إلى امتلاك النظام العراقي لأسلحة الدمار الشاملة واخفاءها. كما أنه يأوي إرهابيين من ضمنهم عناصر القاعدة. ويجد في اجتماع السببين تهديداً للأمن القومي الأمريكي، ويضعه على المحك [2]. لكن تودوروف يجد في الأمر مبالغة، ويرد ذلك إلى أنّ بلداً كالعراق لم يكن بإمكانه إنتاج هذا السلاح، خاصة أّن منشأتها قد دُمرت إثر قصفها من قبل الكيان الإسرائيلي، مدعومة من الغرب. وتأكيد ذلك من قبل تودوروف يرجع إلى أنها لو كانت موجودة حقاً، فقد "**توفرت له فرصة استخدامها: فقد تم الاعتداء عليه وكان مستوى تسلحه متدنيا بالنسبة إلى أنواع السلاح الأخرى**"[3]. لذا كان استخدامه لها أمراً ليس بالغريب، لو كان يمتلكها. ولأن تودوروف يعيد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001 إلى أسباب أيديولوجية، يعتقد بأنه سبباً كافياً لنفي العلاقة المنظمات الراديكالية، وبين النظام العراقي الذي عده لاثكياً.

ويذهب تودوروف إلى البحث عن تبريرات أخرى، حيث إذا كان النفط هو الغرض من تلك الحرب فإنّ الولايات المتحدة كان بإمكانها مراقبة المدخرات العالمية دون حرب. لأن مصالح البلدان المنتجة للنفط تتلاقى، ويعتقد تودوروف أن السبب غير المعلن هي "هوس القوة". وإثبات فاعلية أسلحتها، هذه الرغبة التي هي موجودة أيضاً لدى شركات السلاح. هذه مجموعة الدوافع التي يذكرها تودوروف، والدافعة لتلك الحرب. لكنها لا تكفي لتعبئة الشعب الأمريكي، "**فالسياسة الجماعية لا تقرر تبعا للمصالح الخاصة وحدها**"[4] واستدعى هذا تبريرات أخرى في خطابات الرئيس الأمريكي "بوش": فكان الحديث عن ضمان أمن بلاده، وجلب الحرية للآخرين.

فالمصلحة القومية هو التبرير الأكثر اقناعاً وتأثيراً على الرأي العام الأمريكي وتجيشه. ذلك لأنه بتلك الحرب، سيمنع أي نظام يمكنه التفكير في معاداة الولايات المتحدة الامريكية. أما التبرير الآخر، فهو توفير الحرية للآخرين. وتأتي هذه في إطار الدفع بمبادئ الحضارة الليبرالية. لكن تودوروف ينفي أن تكون الحرية هي مقصد الإدارة الامريكية. إذ كيف لها ذلك وهي تعانق الدكتاتوريات العسكرية في أمريكا اللاتينية. إضافة إلى أنّ إشعال حربٍ لإرساء الديمقراطية لم تكن يوماً على طاولة أي رئيس أمريكي [5]. هنا يلفت انتباهنا رأي الفيلسوف الفرنسي "جاك ماريتان" الذي قال: "**أنّ وضع المصلحة القومية فوق كل شيء وسيلة لفقد كل شيء، أنّ العالم الحر لا يمكن تصوره إلا بالاعتراف بأنّ**

---

[1] تودوروف، تزفيتان، الخوف من البرابرة، مصدر سبق ذكره، ص16.

[2] تودوروف، تزفيتان، اللانظام العالمي الجديد، ت: محمد ميلاد، دار الحوار للنشر والتوزيع: اللاذقية، ط1، 2006، ص19 بتصرف.

[3] المصدر السابق، ص21.

[4] المصدر السابق، ص27.

[5] المصدر السابق، ص29بتصرف.

الصدق هو التعبير عما هو واقع، والصواب هو التعبير عما هو عادل، وليس التعبير عما هو نافع في وقت معين لمجموعة بشرية معينة" [1].

في الوثيقة الرسمية التي نشرها البيت الأبيض يوم 20 ايلول باسم استراتيجية الأمن القومي يذكر فيها الرئيس الأمريكي: يؤكد دعم الحريات، فالأهداف النبيلة بارزة في خطابه، ولأجل ذلك يستوجب استخدام كافة الوسائل ومن ضمنها الحرب [2]. لكن الوسائل المستعملة تلغي الهدف المنشود عند تودوروف. لذلك فالطريقة الأمثل في نظره الإدانة العلنية. كما يدعو للعمل عن طريق الأساليب الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية. لأن الغاية النبيلة ليست كافية لتبرير الوسائل الدنيئة. ويذكر تودوروف صفحات من التاريخ تُظهِر المبالغة في الأمر. فقد كان هتلر أيضاً يخشى التهديد البلشفي، لكن اتضح بعدما حلت من الكوارث الكبيرة، أن الدواء أسوأ من الداء. والأمر ذاته في عدة بلدان من أمريكا اللاتينية، فقد كان التصدي للانقلابات من طرف اليساريين بأساليب دموية، وصلت حصيلتها 30 الفا في الارجنتين و35 الفا حالة تعذيب في الشيلي. إضافة إلى أنّ غزو العراق تحت ذرائع أسلحة الدمار الشامل خلفت آلاف الضحايا من المدنيين [3].

استخدام القوة لا يرفضه تودوروف. لكنه يبيحها في حالة حماية الدول لمواطنيها أو ثرواتها، وهذا بالنسبة له هو الفرق بين الديمقراطية والكليانية. فالأولى تستخدمها للدفاع الشرعي عن النفس، أما الأخرى فتستخدمها لتغيير العالم.

يمضي تودوروف في البحث عن نوايا الولايات المتحدة التسلطية. فتوصل لحقيقة مفاداها: أنها تعتز بقوتها، لذلك تعرضها لمنع الآخرين من التفكير في مهاجمتها. لكنه يرى بأنه غاب عنها أنه يمكن مهاجمتها عن طريق اشخاص باستخدام التكنولوجيا الحديثة، التي أصبحت في متناول كل يدٍ. ومن هنا كان التغيير في استراتيجيتها العسكرية، فكان إضافة ما سمتها "الحرب الوقائية"[4]. والتي كانت نتيجتها الحرب على العراق.

انتقد بعض القوة الحليفة للولايات المتحدة؛ الاستراتيجية الجديدة، لأنها تعتمد على مبدأ القوة لا الحق الذي تجسده في هذه الحالة منظمة الأمم المتحدة، ومجلسها الأمني، والقرارات الصادرة عنها. لكن يبدو أن القوة العسكرية الكبيرة لا تحتاج إلى اجماع دولي، وهذا ما يجعلها تضرب بعرض الحائط مسألة مساعدة مجلس الأمن. لكنها دون شك وفي ظل اصطفافات القوى تجد من يقف معها. فالشرعية الدولية في حرب الولايات المتحدة؛ ليست ضرورية، وإن كانت مستحبة. لأنها تقفز في الكثير من الأحيان عليها. "**فالولايات المتحدة لا تخضع ابدا للشروط التي تطرحها أمامها الهيئات الدولية المختلفة _ وإن أنشأتها منظمة الأمم المتحدة _ عندما تتعلق هذه الشروط بنشاطاتها في أمريكا اللاتينية أو بكل بساطة بمصالحها**"[5]. كما أن الولايات المتحدة سلكت مسار التصعيد، وارتكبت الفظائع بالعنف في كوسوفو. وكانت طعنة لنظام القانون الدولي، الذي من المفترض أن يكون حماية للضعفاء من الدول القوية، وكان تهديداً للديمقراطية الواعدة في يوغسلافية [6].

---

[1] نقلا عن: الحصين، صالح بن عبد الرحمن ، الاقليات المسلمة في مواجهة فوبيا الإسلام، المكتب التعاوني: المدينة المنورة، ط1، 2013، ص38.

[2] تودوروف، تزفيتان، اللانظام العالمي الجديد، مصدر سبق ذكره، ص38.

[3] تودوروف، تزفيتان، الخوف من البرابرة، مصدر سبق ذكره، ص115.

[4] تودوروف، تزفيتان، اللانظام العالمي الجديد، مصدر سبق ذكره، ص56، بتصرف.

[5] المصدر السابق، ص97.

[6] تشومسكي، نعوم، الدول المارقة، ت: أسامة أسبر، عبيكان: الرياض، ط1، 2004، ص 107، بتصرف.

يرى تودوروف، أن لجم القوة عن طريق الحق هو مهمة منظمة الأمم المتحدة. لكنه يذهب إلى أن حق النقض يفقد الحق حقه. ذلك لأن الدول الخمسة والتي تتمتع بحق النقض، تستخدمها وفق مصالحها، وعلاقتها مع الدول التي بشأنها يتم اتخاذ القرار. وبذلك "**فإن إسرائيل التي تحميها الولايات المتحدة لا تتعرض لخطر أي تدخل تقرره منظمة الأمم المتحدة**"[1]. وهنا يذهب إلى أن المنظمة العالمية ليست بإمكانها الحد من هيمنة القوة العظمى، بل أنها تكرسها.

في حالة الهيمنة هذه يتساءل تودوروف: كيف لنا أن نضمن السلم العالمي؟ وكأنه يجد الإجابة الامريكية: "**من خلال الثقة بقوتنا. أكبر قوة في العالم. وليس أمام الدول الأخرى إلا الخضوع واتباع هذه السياسة وإن لم ترق لها وذلك هو الثمن الذي لابد من دفعه في سبيل مكسب السلم**"[2]. ونجد ما يشابه هذا عند هنتغتون، فالسعي للحفاظ على التفوق العسكري الدائم، ومنع انتشار الأسلحة النووية والبيولوجية والكيمياوية إضافة إلى وسائل استخدامها، كما السعي لتنمية القيم الغربية، تكون من خلال الضغط على الدول الأخرى لاحترام حقوق الإنسان على الطريقة الغربية، وأيضا حماية التماسك الثقافي والاجتماعي والإثني في المجتمعات الغربية. كما من خلال تقييد حركة اللاجئين والمهاجرين إلى الغرب فذلك هي حماية للمصالح الغربية [3]. لكن سياسة القوة والنجاح العسكري لا يشكل نجاحاً دائماً كما يبينها تودوروف. لأنها مع مرور الوقت تؤثر على الحياة الديمقراطية في الولايات المتحدة. كما تؤثر على صورتها كراعية للديمقراطية. ويأتي تقييم تودوروف في هذا الإطار، بعدم التدخل في شؤون الدول. "**فاحترام السيادات القومية هو الذي يخدم أمن البلاد أفضل من الحرب الوقائية**"[4]. فالحرب تعني فشل السياسة والدبلوماسية، ومن الصعب إزالة آثارها حتى في وقت السلم. حتى وإنْ كانت مستندة لرأي الأغلبية الذي من المحتمل أنْ لا يكون مستنيراً، وربما يكون ضد روح العدالة "**إن كل ضربة توجه من أحد الخصوم تثير لدى الطرف الآخر الحمية لتوجيه رد أكثر قساوة. إن خوف البعض، العائد للاعتداءات التي تعرضوا لها، يقودهم إلى تشديد ضرباتهم؛ فيما حقد الآخرين الذي تغذيه الاهانات الماضية والحالية، يقودهم إلى أعمال أكثر عنفا كما تنم عن يأس**"[5]، لأن التقنية الحديثة أصبحت في متناول الجميع. ويأمل تودوروف في التحرر من الخوف المرضي من الآخر، والذي يُحوّل الغرب إلى بربري، ويسعى للعيش في عالم يؤمِن بالتعددية. لأن تأكيد الذات لا يكون عبر تدمير الآخر واخضاعه.

هذه الأفعال تمثل البربرية، من وجهة نظر تودوروف. ويقترح: بأن نسلك طريق "نيلسون مانديلا" في عدم الرد، حتى نقلل من أعداد الضحايا لا بل العمل الحثيث لخلاص من هم تحت التعذيب والاعدامات. هذا التسامح الذي لا يبدو أن المرء يتحلى به ما دام يرى بني جلدته يبادون من دول تتدخل باسم الديمقراطية، وترتكب جرائم باسم حقوق الانسان، فالحديث عن الخير الذي تجسده قيم الغرب والشر الذي تجسده قيم الآخرين هي تبرير الرعب.

---

[1] تودوروف، تزفيتان، اللانظام العالمي الجديد، مصدر سبق ذكره، ص94.

[2] المصدر السابق، ص101.

[3] هنتغتون، صامويل، صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي الجديد، ت: طلعت الشايب، سطور: القاهرة ، ط2، 1999، ص297، بتصرف.

[4] تودوروف، تزفيتان، اللانظام العالمي الجديد، مصدر سبق ذكره، ص78.

[5] تودوروف، تزفيتان، الخوف من البرابرة مصدر سبق ذكره، ص201.

الخاتمة:

لم يوفر تودوروف جهداً في سبيل تأكيد أهمية الحوار. لأنه السبيل الوحيد لحل مشاكل راهننا، وسعيا منه لتخفيف التوتر على جنبات كوكبنا. فالعلاقة مع الآخر يجب أن تكون على أساس من الاحترام والود وشريك في الإنسانية، لا السيطرة والهيمنة، أو بعرض القوة العسكرية والنظرة الدونية للآخر. مؤكداً الدور المحوري للمنظمات الدولية في منع الهيمنة من مبدأ الحق. ويؤكد بأن جميع البشر لهم بشكل أو بآخر رصيد في التطور الذي نحن فيه الآن. إضافة إلى تأكيده أن العنف لا يولد إلا العنف. نافياً نسبة البربرية والإرهاب إلى دينٍ أو معتقدٍ أو حضارةٍ ما. فجميع الحضارات تحمل جزءاً من التمدن، إضافة إلى جزء من البربرية. هذا الرأي هو تعبير صادق عن مفكر أوروبي، يُدرك مدى خطورة الشعبوية المتنامية في الغرب، وزرع الأحقاد والضغينة بين أبناء الجنس البشري، وتأثيرها على مستقبل الإنسان.

Reference:

Sources:

1-Todorov, T. The New World Disorder. Trans. Mohammad Milad. Ed1, Dar AL-hywar, Latakia, 2006.

2- Todorov, T. The Fear of Barbarians. Trans. Jan Majed Jabor. Ed1, Kalima, Abu Dhabi ,2009.

3- Todorov, T. Contemplations in Civilization, Democracy and Al-truism. Trans. Mohammad AL-jerty. Ministry of Culture, Art and Heritage, Al-Doha, 2014.

4- Todorov, T. Hope and Memory: Lessons from the Twentieth Century. Trans. Narmin Al-Omari. Ed1, Abekan, Riyadh, 2006.

References:

1- Al-Hussen, Saleh bin Abdul-Rahman. Islamic Minorities Facing Islamo-phobia. Ed 1, Al-Maktab al-Ta'awni, Madinah, 2013.

2- Chomsky, N. Rogue States. Ed 4, Trans. Osama Isper. Abekan, Riyadh, 2004.

3- Hitler, A. Mein Kamp. Trans. Lewes Al-haj. Ed2, Pisan, Beirut, 1995.

4- Huntington, S. Clash of Civilizations and the Remaking of World Order. Trans. Talaat EI Shayb. Ed2, Setor, Cairo, 1999.

5- Jacobucci, M. Enemies of Dialogue: Perverting Reasons of Intolerance. Trans. Abd Al Fatah, Hasan. Egyptian General Book Authority, Cairo, 2010.

6- Levi-Struss, C. Race and History. Trans. Salim Hadda. Ed2, University :Foundation for Studies and publishing, Beirut,1988.

7- Lobon, G. Civilization of the Arabs. Trans. Adel Zwaiter, Hindawi, Cairo, 2010.